بجمال من ذلك النوع الذي يسميه الحكيم «جمالاً محيفاً»، ويلومه على عداوته للمرأة وبغضه لها برغم أنها الوحيدة التي تستطيع أن تضرب على أوتار الفنان فتستخرج منها الألحان الخالدة: «إنك تبغض المخلوق الوحيد الذي يستطيع أن يلهمك حير الكتب.. يا للنعمة الزائلة!.. إن هده الكتب التي كان مقدراً لها أن تخرج من هذا القلب الدائم المتثائب..»[63].

وتسنح الفرصة للحكيم فيتعرف إلى «ناتالي» بوساطة شيح ثري، وتنزل معه الفندق الذي يسكنه لتشاطره عرفته، وتستحيل هده الغرفة المتواضعة إلى ما يشبه الجنة بحلولها فيها، ويغمر الظلام مدينة «باريس» فيتمنى الحكيم للحميلة نوماً هادئاً ويرتمي على فراشه يطلب النوم، ويحاول أن يتسلى بالقراءة، ولكنه لم يستطع فيتململ في فراشه إلى أن يدركه الصباح، ويقوم فيرتدي ملابس الخروج تاركاً لها هذه الكلمة: «سيدتي· لم يبق أمامي غير الفرار»[64]. وهكذا هرب الحكيم بمفرده إلى شوارع «باريس» ليسير على غير هدى.

لماذا فر يا ترى ألأنها خيبت ظنه فيها كما هو الأمر بالنسبة إلى الفتاة «سوزي» أو غيرها؟ أم لأنها نأت عنه وتكبرت عليه كما هو الأمر بالنسبة إلى الزوجة «عنان»؟. ليس لهذا ولا لذاك، وإنما فر لأنه لم يطق الدنو من نار حمالها المحرقة، من ناحية، ولأن شيطان فنه يريد أن يسيطر عليه الجمال ليؤلمه دون أن يبيح له التمتع به من ناحية أخرى.

إن شيطان فنه يريد منه أن ينظر إلى التفاحة ويستنشق شذاها الركي، لتسيل لعابه دون أن يطمع في قطفها وأكلها لأنها محرمة عليه، ولو أنه عصى شيطانه وأكل لحرج من جنة الفن السحرية.

ولما أن نتهم هذا الشيطان بالجبروت والقسوة على معاملته لتوفيق الحكيم، فإن هذا الأخير نفسه يتهمه ويسأله في ذلة عن الحكمة في حبروته وقساوته، فيسمع رده الصارم: «.. أنتم جميعاً في خدمتي.. أنتم لي وما ملكت أيديكم.. أنتم رقيق مشدود إلى عجلتي.. لكم أن تنظروا إلى راقصات معبدي.. وأن تتأملوا جمالهن.. وأن تلفظوا أزهارهن.. وأن تستلهموا حسنهن